﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (٥١)

إذن اجتمع الرسول والمرسل إليهم فى أنهم جميعا مربوبون إلى إله واحد ، هو الذى يتولى تربيتهم والتربية تقتضى إيجادا من عدم ، وتقتضى إمدادا من عدم ، وتقتضى رعاية قيومية ، وعيسى ابن مريم يقر بعبوديته لله وكأنه يقول : وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيدا عليكم ، ولكن أنا وأنتم مشتركون فى العبودية لله . « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

ومعنى « هذا صراط مستقيم » أى أنه صراط غير ملتو يا لأن الطريق إذ إلتوى ؛ انحرف عن الهدف ، وحتى تعرف أن الكل يسير على طريق مستقيم واحد ، فلتعلم أنك إذا نظرت على سبيل المثال إلى الدائرة ، فستجد أن لها محيطا ، ولها مركزا ، ومركز الدائرة هو الذى نضع فيه « سن الفرجار » حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك تصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار ، وكلما بعدنا عن المركز زاد الفرق ، وكلما نقرب من المركز تتلاشى الفروق .

فإذا ما كان الخلق جميعا يلتقون عند المركز الواحد فهذا يعنى الاتفاق ، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا نجد الناس شيعا إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم.والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، ومادامت عبوديته لإله واحد ففى هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق .

إنه حتى فى الأمر الحسى وهو الدائرة المرسومة ، نجد أن الأقطار المأخوذة من المحيط وتمر بمركز الدائرة ، سنجد أنه فى مسافة ما قبل المركز تتداخل الأقطار إلى أن تصير عند نقطة المركز شيئا واحدا لا انفصال بينها أبدا . وهكذا الناس إذا التقوا جميعا عند مركز عبوديتهم للإله الواحد ، فإذا ما اختلفوا ، بعدوا عن العبودية للإله الواحد بمقدار ذلك الاختلاف .

ولذلك دعا المسيح عيسى ابن مريم الناس لعبادة الله « إن الله ربى وربكم فاعبدوه

هذا صراط مستقيم » ذلك هو منطق عيسى . كان منطقه الأول حينما كان فى المهد

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة مريم)

إن قضية عبوديته لله قد حُسمت من البداية ، وهى قضية القمة ، إنه عبدالله والقضية الثانية هى قضية الرسالة ونقل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله حتى يبنوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله عليهم ، ومن الطبيعى أن أى رسول عندما يأتى بمنهج من عند الله ، فالهدف أن يحمل الناس جميعا على سلوك هذا المنهج ، ويحدد حركة حياتهم بـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » وعندما يسمع الواحد من الناس الأمر بـ « افعل » فقد يجد فى التكليف مشقة ، لماذا ؟ لأنها تلزمه بعمل قد يثقل عليه ، و« لا تفعل كذا » فيها مشقة ، لأنها تبعده عن عمل كان يحبه .

والمرء فى الأحداث بين اثنين : عمل يشق عليه فيحب أن يجتنبه ، وعمل يستهويه فيحب أن يقترب منه ، والمنهج جاء من السماء ليقول للإنسان « افعل » ولا « تفعل » إذن فهناك مشقة فى أن يحمل الإنسان نفسه على أن يقوم بعمل ما من أعمال التكليف ، ومشقة أخرى فى أن يبتعد عن عمل نهى عنه التكليف .

ومعظم الناس لا تلتفت إلى الغاية الأصيلة ؛ ولا يفهمونها حق الفهم ، فيأتى أنصار الشر ؛ ولا يعجبهم حمل نفوسهم على مرادات خالقهم . إن أفكار الشر تلح على صاحبها فيتمرد على التكليف الإيمانى ، وأفكار الشر تحاول الاقتراب بصاحبها من فعل الأمور التى حرمها التكليف . ولذلك ينقسم الناس لأنهم لم يحددوا هدفهم فى الوجود .

إن كل حركة فى الوجود يمكننا أن نعرف أنها حركة إيمانية فى صالح انسجام الإنسان مع الكون ، أو هى حركة غير إيمانية تفسد انسجام الإنسان مع فطرته ومع الكون ، فإذا كانت الحركة تصل بالإنسان إلى هدفه الإيمانى . فستكون حركة طيبة وحسنة بالنسبة للمؤمن ، وإذا كانت تبعده عن هدفه تكون حركة سيئة وباطلة ، وهكذا نرى أن الهدف هو الذى يحدد الحركة .

إن التلميذ الذى يذهب إلى المدرسة له هدف بأن يتخرج فى مهنة ما ، ومادام ذلك هو هدفه فنحن نقيس حركة سلوكه ، هل هى حركة تقربه إلى الهدف أم تبعد به عنه ؟ فإن كان مجتهدا . فاجتهاده حركة تقرب له الهدف ، وإن كان كسولا ، خاملا فإنه يبتعد بنفسه عن الهدف . إذن يجب أن نحدد الهدف حتى نعرف هل يكون هذا العمل صالحا . أو غير صالح .

وآفة الناس أنهم عندما يحددون أهدافهم يقعون فى اعتبار ما ليس بالهدف هدفا وغاية . ومادام هناك من يعتبر غير الهدف هدفا فلابد من حدوث اضطراب وضلال ، فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف ، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها . أما الذى يعرف أن الهدف ليس هو الحياة ، إنما الحياة مرحلة ، نسأله .. ما الهدف إذن ، فيقول : إنه لقاء الله والآخرة .

هذا المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف . لكن الضال الذى يرى الدنيا وحدها هدفه ولا يؤمن بالجنة أو النار ، هو غارق فى ضلاله ويقبل على ما تشتهيه نفسه ، ويبتعد عما يتعبه وإن كانت فيه سعادته .

ولكن المؤمن يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا ، وأن الهدف فى مجال آخر ، لذلك يسعى فى تطبيق التكاليف الإيمانية ليصل إلى الهدف ، وهو الجنة . إذن ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف ، وحين يوجد الهدف ، فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذى يقربه من الهدف ، فيفعله ، فهذا هو الخير . أما الذى يبعده عن الهدف ويفعل عكس الموصل إليه فهذا هو الشر .

وإذا كان الأمر كذلك والمسألة هى فى تحديد الهدف يجب أن تعلم أن الناس يستقبلون الكثير من الأحداث بما يناقض معرفة الهدف ، ومادام الهدف هو أن تذهب إلى الآخرة لتلقى الله فلماذا يغرق فى الحزن إنسان لأن له حبيبا قد انتقل إلى رحمة الله ؟

هذا الإنسان يمكننا أن نسأله ، لماذا تحزن وقد قصر الله عليه خطواته إلى الهدف ؟ لابد أنك حزين على نفسك لأنك مستوحش له ، ولأنك كنت تأنس به ، أما حزنك من أجله هو ، فلا حزن ، لأنه اقترب من الهدف ووصل إليه .

وفى حياتنا اليومية عندما يكون هدف جماعة أن تصل إلى الإسكندرية من القاهرة ، نجد إنسانا ما يذهب إلى الإسكندرية ما شيا ، لأنه لا يجد نقودا أو وسيلة توصله ، ونجد آخر يذهب إليها راكبا حمارا ، وثالثا يذهب إليها راكبا حصانا ، ورابعا يصل إليها راكبا « أتوبيسا » ، وخامسا يصل إليها بركوب الطائرة ، وسادسا يصل إليها بصاروخ ، وكل ما حدث هو أن كل واحد فى هذه الجماعة قد اقترب من الهدف بالوسيلة التى توافرت له ، وهكذا نجد إنسانا يذهب إلى الله ماشيا فى سبعين عاما ، وآخر يستدعيه الله فورا ، فلماذا تحزن عليه ؟

إن لنا أن نحزن على الإنسان الذى لم يكن موفقا فى خدمة الهدف ، أما الموفق فى خدمة الهدف فلنا أن نفرح له ، ونقول : إن الله قد قصر عليه المسافة ، وأغلبنا إن كان عنده ولد حبيب إلى قلبه وصغير ويفقده فهو يغرق فى الحزن قائلا « إنه لم ير الدنيا » لهذا الإنسان نقول : يا رجل إن الله جعل ابنك يقفز الخطايا ويتجاوزها وأخذه إلى الغاية ، فما الذى يحزنك ؟ إن علينا أن نحسن استقبال ما يقضى به الله فى خلقه ، ونعرف أنه حكيم ، وأنه رحيم وأن كل شىء منه يجب ألا نفهمه خارجا عن الحكمة .

وبعد تلك الآيات الكريمة التى تحدث فيها الحق عن مريم وعيسى عليه السلام . . قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

لقد ذكر عيسى ابن مريم القضية الجامعة المانعة أولا حين قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وأوضح عيسى ابن مريم بما لا يقبل الجدل : « أنا معكم سواء فى مربوبيتنا إلى إله واحد ، وأنا لم أجيء لأعلّمكم لأنى تميزت عنكم بشيء . فيما يتعلق بالعبادة نحن سواء ، فالله رب لى ورب لكم ، والصراط المستقيم هو عبادة الله الحق .

ونحن ساعة نسمع « الصراط المستقيم » فإننا نتخيل على الفور الطرق الموصلة إلى الغاية ، ونعرف جميعا أنه لا يوجد طريق فى الحياة مصنوع لذات الطريق ، إنما الطريق يصنع ليوصل إلى غاية . وساعة تسمع « صراط » فإننا نفهم على الفور الغاية التى نريد أن نصل إليها . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّـٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾

(سورة الأنعام)

ومادام هناك طريق لغاية ما فلابد لنا أن نحدد الغاية أولا ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق الموصل إلى تلك الغاية . وهكذا يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه » .

والعبادة هى إطاعة العابد لأمر المعبود ، وهكذا يجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية فى الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، إن هذه هى أركان الإسلام ولا يستقيم أن ينفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية ، إن الأركان التعبدية لازمة ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة فى الدنيا هى كل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون .

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هى تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه كباب العبادات وباب المعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شيء يأمر به الله اسمه « عبادة » . إذن فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون . ولذلك قلنا : إنك حينما

تتقبل من الله أمرا بعبادة ما ، فأنت تتلقاه وأنت موصول بأسباب الله بحثا عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة ، والمثل الواضح لذلك هو قول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، وهذا الأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ ، إنما أخذ الإنسان من عمل ، هو البيع . . ولو نظرنا إلى دقة الأداء فى البيع لوجدناها قمة الأخذ المباشر للرزق . إن كلام الله يصل فى دقته إلى ما لا يصل إليه كلام بشر ، فلم يقل الله مثلا « اتركوا الصنعة » « اتركوا الحرث » ولكن الحق جاء بالبيع هنا لأنه قمة النفعية العاجلة .

إن الذى يحرث ويزرع ينتظر وقتا قد يطول حتى تنضج الثمار ، لكن الذى يبيع شيئا ، فإنه ينال المنفعة فورا ، لقد جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التى قد تأتى ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلم هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلا عن الشراء ، لأن الشارى قد يشترى وهو كاره ، لكن البائع يملأه السرور وهو يبيع فقد يذهب رجل لشراء أشياء لبيته فيسمع الأذان فيسرع إلى الصلاة ويقول لأهله من بعد ذلك : لقد ذهبت إلى الشراء ، لكن المؤذن قد أذن لصلاة الجمعة ، ذلك أن الإنسان يحب ألا يدفع نقودا ، لكن البائع يستفيد بقمة الفائدة . لذلك يخرجنا الحق من قمة « كل الأعمال ونهاية كل الأعمال وهى مبادلة السلع بأثمانها » . لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

لقد أخرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغى من فضل الله ، ولذلك يكون الإنتشار فى الأرض والبحث عن الرزق عبادة .

ولننظر إلى الدقة فى قوله الحق : « فانتشروا فى الأرض » إن الانتشار يعنى أن ينساح البشر لينتظموا فى كل حركات الحياة ، وبذلك تعمر كل حركة فيها . إن كل حركة فى الحياة هى عبادة ، وهكذا نستوعب قوله الحق على لسان عيسى بن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ومن بعد ذلك يقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » لقد حسم عيسى بن مريم أمر العقيدة حينما قال : « إن الله ربى وربكم » إن فى ذلك تحذيرا من أن يقول أتباع عيسى أى شىء آخر عن عيسى غير أنه عبدالله خاضع لله ، مأمور بالطاعة والعبادة لله . ووضع أمامهم المنهج ، فقال : « هذا صراط مستقيم » .

وقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » يدل على أن كل صاحب فكرة ، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف لابد أن يكون يقظ الأحاسيس ، لأن صاحب الفكرة وخاصة الدينية يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناس فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك أناساً يستفيدون من وجود جموع الناس فى الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناس ظالمون وأناس مظلومون ، والظالم الذى يأخذ - اغتصابا - خيرَ الآخرين ويعربد فى الكون يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ، ويدعوه إلى الهداية إلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب أن تُنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والقائل لها .

إن الداعية مأمور من الله بأن يكون يقظا لأنه إن اهتدى بكلماته أناس وسعدوا بها ، فإنّه يغضب أناساً آخرين ، ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد ، فالداعية عليه أن يعرف يقظة الحس ، ويقظة الحس معناها الالتفاف إلى الأحاسيس الخفية الموجودة عند كل إنسان ، ونحن نسمى الأشياء الظاهرة منها الحواس الخمس ، اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والتذوق ، والشم .

إن رجل الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسه حتى يعرف من الذى يجبن ويرتجف

لحظة أن تأتى دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن ويحسن الراحة لدعوة الخير . إن رجل الدعوة مأمور بدقة اليقظة والإحساس ليميز بين الذى تتغير سحنته لحظة دعوة الخير ، ومن الذى يستبشر ويفرح .

وعندما أعلن عيسى ابن مريم منهج الحق ، وجد أنصار الظلم وأنصار البغى ، وأنصار الظلمات غير معجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله ، لذلك أحس منهم الكفر لقد كان مليئا باليقظة والانتباه . إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله ؛ ليخرج أناساً من مفسدة إلى مصلحة . وعندما أحس منهم الكفر ، أراد أن ينتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة . « قال من أنصارى إلى الله » ؟

إن الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية . والتضحية تكون بالنفس والنفيس ، لذلك لابد أن يستثير ويحرك من يجد فى نفسه العون على هذه المسألة . وهو لم يناد أفرادا محددين ، إنما طرح الدعوة ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة ، ولتكون التضحية بإقبال نفس لا استجابة لداع . « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله » وكلمة « أنصار » هى جمع « نصير » . والنصير هو المعين لك بقوة على بُغْيَتِك .

وعندما سأل عيسى : « من أنصارى إلى الله ؟» كانت إلى فى السؤال تفيد الغاية ، وهى الله ، أى من ينصرنى نصرا تصير غايته إلى الله وحده لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن أناس يدخلون فى لواء الدعوة من أجل الغنيمة أو يدخلون من أجل الجاه ، أو غير ذلك ، إنه يسأل عن أهل العزم ليكون كل منهم متجها بطاقته إلى نصرة الله وحده .

ومثال ذلك ما دار بين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين رجال من المدينة فى أثناء مبايعتهم له فى العقبة فقد قال لهم رسول الله : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون فيه نساءكم وأبناءكم » فأخذ الداء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مِما نمنع منه أزرنا » فبايعوا رسول الله على ذلك فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعَنا » ؟ فتبسم رسول الله ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »

أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم[١]

أقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم ستمتلكون الأرض ، وستسودون الدنيا ، أو ستنتصرون على أعدائكم ؟ لا . بل قال صلى الله عليه وسلم أنا منكم وأنتم مِنّى . لماذا ؟ لأنه لو قال لهم ستنتصرون على أعدائكم ، فقد يدخلون المعركة ، ويموت واحد منهم ؛ ولا يرى النصر ، لكن الأمر الذى سيراه كل المؤمنين أن رسول الله منهم وأنهم من رسول الله ومادموا كذلك فسيدخلون معه الجنة وهى الغاية الأصيلة .

وعندما سأل عيسى ابن مريم « من أنصارى إلى الله » فكأنه كان يسأل : من يعيننى معونة غايتها الله ؟ ولماذا نأخذ هذا المعنى ؟ تكون الإجابة : أنا آخذ المعنى على قدر ذهنى ؛ لأن مرادات الله فى كلماته لا تتناهى كمالاً ، وقد يأتى غيرى ويأخذ منها معنى آخر . ومعنى « النصير » : هو « من ينصر بجهد وقوة » . وننظر النصر فى الإيمان كيف يأتى ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر فى الإيمان قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

(سورة محمد)

إذن فالنصر منا لله بأن نُطبق دينه ، وهذا مراد الله ، ولذلك يأتى النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الرب لمربوبه ، وقد يكون مراد عيسى ـ عليه السلام ـ من الذى ينصرنى كى ينضم إلى الله فى النصر ؟

ونحن هنا أمام معسكرين ، معسكر الإيمان ، ومعسكر الكفر . لقد سأل عيسى « من أنصارى إلى الله » أى أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية هى الله ، ونتفهم نحن هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

(سورة محمد)

ونعرف أيضا أن هناك نصراً من المؤمن لله ، وهناك نصر من الله للمؤمن . وهكذا

١ ـ السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ .

يكون سؤال عيسى ابن مريم « من أنصارى إلى الله » ؟ قد أفاد المعنيين معاً . وكانت الإجابة : « قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

والحواريون ماخوذة من الحور ، وهو شدة البياض ، وهم جماعة أشرقت فى وجوههم سيماء الإيمان ، فكأنها مشرقة بالنور . ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه فى المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس ، ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه . كيف ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ، ومكون من ذرات ، وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد ، وساعة ان تتجه كل الأجهزة إلى ما أراده الله ، فإن الذى يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، ومادامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة ، تكون السحنة مكفهرة .

عندما قال عيسى : « من أنصارى إلى الله » سمع الاستجابة من الحواريين ، والحواريون قوم لهم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان ، أو هم قوم بيض المعانى ، أى أن معانيهم بيضاء ومشرقة . والنبى صلى الله عليه وسلم سمى بعضا من صحابته حوارى رسول الله ، وهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت .

وحين قال الحواريون : « نحن أنصار الله » كان ذلك يعنى أن كل إنسان منهم يريد نصرة الله . فينضم إلى الله ناصرا للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج . ونحن نعرف مقومات النصرة لله . إنه الإيمان:وما الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان فى عمومه . فلو لم أكن مؤمنا بأن الطريق الذى أسير فيه موصل إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه .

مثال ذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، وإن لم اعتقد أننى إن لم أذاكر دروسى سوف أرسب لما ذاكرت . إذن فكل أمر

فى الدنيا يتم بناؤه على الإيمان ، لكن إذا أطلق الإيمان بالمعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا ، وهى الإيمان بالله ، ولذلك فأسلحة النصر إلى الله هى: إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله . ولذلك قال الحواريون : « نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

لماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض فى الرسول أن يبلغ القوم عن الله ، فيشهد عليهم كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

(من الاية ٧٨ سورة الحج)

ولنا أن نلحظ أن الحق أورد على لسانهم ـ الحواريين ـ الإيمان أولا ، لأنه أمر غيبى عقدى فى القلب ، وجاء من بعد ذلك على لسان الحواريين طلب الشهادة بالإسلام ، لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه . إن قولهم : « واشهد بأنا مسلمون » هو أيضا طلب منهم يسألونه لعيسى ابن مريم أن يبلغهم كل مطلوبات الإسلام قل لنا افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا إنهم قالوا : « آمنا » وماداموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بمن بلغهم عن الله ، والمطلوب من عيسى ابن مريم أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام وقد بلغهم ذلك وعملوا به وقالوا من بعد ذلك :

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝٥٣ ﴾

فهل يكون إعلانهم للإيمان، يعنى إيمانهم بتشريعات رسالة سابقة، لا، إن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء بشىء من الله ، فوراء

مجىء رسول جديد أمر يريد الله إبلاغه للناس ، ونحن نعلم أن العقائد لا تغيير فيها ؛ وكذلك الأخبار ؛ وكذلك القصص ، ولكن الأحكام هى التى تتغير. فكأن إعلان الحواريين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقا على عيسى ابن مريم من عقائد وبما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام وتشريعات .

وقولهم : « ربنا آمنا بما أنزلت » كلمة « بما أنزلت » تدل على منهج منزل من أعلى إلى أدنى ، ونحن حين نأخذ التشريع فنحن نأخذه من أعلى . ولذلك قلنا سابقا : إن الله حينما ينادى من آمن به ليتبع مناهج الإيمان يقول : « تعالوا » أى ارتفعوا إلى مستوى التلقى من الإله وخذوا منه المنهج ولا تظلوا فى حضيض الأرض ، أى . لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم،ومادام المؤمن يريد العلو فى الإيمان ، فليذهب بسلوكه فى الأرض إلى منهج السماء .

وقولهم : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول » . إن المتبع عادة يقتنع بمن اتبعه أولا ، حتى يكون الاتباع صادرا من قيم النفس لا من الإرغام قهرا أو قسرا ، فنحن قد نجد إنسانا يرغم إنسانا آخر على السير معه ، وهنا لا يقال عن المُرغم : إنه « اتبع » إنما الذى يتبع ، أى الذى يسير فى نفس طريق صاحبه يكون ذلك بمحض إرادته ومحض اختياره . فلو سار شخص فى طريق شخص آخر بالقهر أو القسر لكان ذلك الاتباع بالقالب ، لا بالقلب . ولذلك فمن الممكن لمتجبر أن يمسك سوطا ويقهر مستضعفا على السير معه ، وفى ذلك إخضاع لقالب المستضعف ، لكنه لم يخضع قلبه ، فالإكراه يخضع القالب لكنه لا يخضع القلب .

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إن الحق يخبر رسوله أن أحدا من العباد . لا يستعصى على خالقه ، وأنه سبحانه القادر على الإحياء والإماتة ، ولو أراد الله أن ينزل آية تخضع أعناق كل العباد لَفَعَلَ ، لكن الحق لا يريد أعناق الناس ، ولكنه يطلب القلوب التى تأتى طواعية وبالاختيار ، وأن يأتى العبد إلى الإيمان وهو قادر ألا يجىء . هذه هى العظمة

الإيمانية . وقال الحواريون بعد إعلانهم الإيمان بما جاء به عيسى : « فاكتبنا مع الشاهدين » إنه الطلب الإيمانى العالى الواعى ، الفاهم . إنهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول ، ويشهدون كما يشهد الرسل لأممهم ، ويطلبون أن يكتبهم الله مع الذين يشهدون أن الرسل يبلغون رسالات الله وأنهم يحملونها من بعدهم ؛ ولذلك قلنا عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام : إنها الأمة التى حملها الله مهمة وصل بلاغ الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة . لماذا ؟ هاهو ذا القول الحق :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

ولذلك فلن يأتى أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد ائتمن الله أمة محمد ؛ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك فلا نبوة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يخبرنا الحق :

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

إن الأشياء التى يدركها العقل هى مسميات ولها أسماء وتكون أولا بالحس ، لأن الحس هو أول مصاحب للإنسان لإدراك الأشياء ، وبعد ذلك تأتى المعانى عندما نكبر ونعرف الحقائق . إن البداية دائما تكون هى الأمور المحسة، ولذلك يقول الله عن المنهج الإيمانى : إنه طريق مستقيم ، أى أن نعرف الغاية والطريق الموصل إليها،

وكلمة « الطريق المستقيم » من الأمور المحسة والتى يتعرف الناس عليها بالتطبيق لقواعد المنهج .

إن كلمة « مكر » ، مأخوذة من الشجر ، فساعة أن ترى الشجرة التى لا تلتف أغصانها على بعضها فإن الإنسان يستطيع أن يحكم أن ورقة ما ، هى من فرع ما . ولكنّ هناك نوع من الأشجار تكون فروعه ملفوفة على بعضها بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعرف أى ورقة من أى فرع هى ، ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « المكر » . فالرجل الذى يلف ويدور ، هو الذى يمكر ، فالذى يلف على إنسان من اجل ان يستخلص منه حقيقة ما ، والذى يحتال من أجل إبراز حقيقة ، فإن كان ذلك بغير قصد الضرر نسميه حيلة ، وإن كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيىء . ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

ومعنى ذلك أن هناك مكراً غير سيىء ، أى أن المكر الذى لا يقصد منه إيقاع الضرر بأحد ، فإننا نسميه مكرَ خير ، أما المكر الذى يقصد منه إيقاع الضرر فهو « المكر السيىء » . ولنا أن نسأل : ما الذى يدفع إنسانا ما إلى المكر ؟ إن الذى يمكر يدارى نواياه ، فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، ويريد أن يزين لك عملا ليمكر بك ، فيحاول مثلا أن يصحبك إلى مكان بعيد غير مأهول بالناس ويريد أن يوقع بك أبلغ الضرر ، وقد يكون القتل .

إذن ، فمن أسس المكر التبييت، والتبييت يحتاج إلى حنكة وخبرة ، لأن الذى يحاول التبييت قد يجد قبالته من يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، ومادام المكر يحتاج إلى التبييت ، فإن ذلك علامة على الضعف فى البشر لأن القوى لا يمكر ولا يكيد ولكن يواجه .

إن القوى لحظة أن يمسك بخصم ضعيف ، فمن الممكن أن يطلقه ، لأن القوى مطمئن إلى أن قوته تستطيع أن تؤذى هذا الضعيف . لكن الضعيف حين يملك قويا ، فإنه يعتبر الأمر فرصة لن تتكرر ، ولذلك فالشاعر يقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت
كـذلـك قـدرة الـضـعـفـاء

إن الضعيف هو الذى يمكر ويبيت . والذى يمكر قد يضع فى اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجح عقلا ، وقد ينكل به كثيرا ، لذلك يخفى الماكر أمر مكره أو تبييته . فإذا ما أراد خصوم المنهج الإيمانى أن يمكروا، فعلى من يمكرون ؟ إن الرسول لا يكون فى المعركة بمفرده ولكن معه الله .

﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْـدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾

(سورة البقرة)

فالله يعلم ما يبيت أى إنسان ، ولذلك فعندما يريد الله أن يبرز شيئا ويوجده فلن يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره ، إذن فمكر الله لا قبل لأحد لمواجهته .

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ۝٥٤ ﴾

(سورة آل عمران)

وساعة تجد صفة تستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة فقط وليست من أسماء الله الحسنى . إن المؤمنين بإمكانهم أن يقولوا للكافرين : إنكم إن أردتم أن تبيتوا لنا ، فإن الله قادر على أن يقلب المكر عليكم . أما أسماء الله وصفاته فهى توقيفية ، نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن إذا وجد فعل لله لا يصح أن نشتق نحن منه وصفا ونجعله اسما لله ، « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . فليس من أسماء الله مخادع ، أو ماكر ، إياك أن تقول ذلك ، لأن أسماء الله وصفاته توقيفية، وجاء القول هنا بمكر الله كمقابل لفعل من البشر ، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يستطيعون أن يمكروا بالله ، لأن الله إذا أراد أن يمكر بهم ، فهم لا يستطيعون مواجهة ذلك . إن الحق يقول :

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

إذن فهناك « مكر خير » . . وذلك دليل على أن هناك من يصنع المكر ليؤدى إلى الخير . ولماذا تأتى هذه الآية هنا ؟ لأن هناك معركة سيدخلها عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعيسى عليه السلام لم يجىء ليقاتل بالسيف ليحمى العقيدة ، إنما جاء واعظا ليدل الناس على العقيدة ، إن النصرة لا تكون بالسيف فقط ، ولكن بالحجة . ونحن نعرف أن السماء كانت لا تطلب من أى رسول أن يحارب فى سبيل العقيدة لأن السماء هى التى كانت تتولى التأديب .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ولم يجىء قتال إلا حينما طلب بنو إسرائيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى أذن الله لها أن تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس . إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة ، إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإيمانية ، فبدلا من أن يترك الناس

مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة. فالمسلمون يرفعون السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد الله . وعباد الله لهم أن يختاروا عقيدتهم .

ولذلك فعندما يقول أعداء الإسلام : « إن الإسلام انتشر بالسيف » . نرد عليهم : إن الله قد بدأ الإسلام بضعف حتى يسقط هذا الاتهام ، لقد كان المسلمون الأوائل ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فيتجه بعضهم إلى الحبشة ، ويهاجرون بحثا عن الحماية ، فلو كان الإسلام قد انتشر بالسيف فلنا أن نسأل : من الذى حمل أول سيف ليكره أول مؤمن ؟ إن المؤمنين رضوا الإسلام دينا وهم فى غاية الضعف ومنتهاه . إن الإسلام قد بدأ واستمر ومازال يحيا بقوة الإيمان .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فى أمة أمية ، ومن قبيلة لها شوكتها ، وشاء الحق ألا ينصر الله دينه بإسلام أقوياء قريش أولا ، بل آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الضعفاء وخاض رسول الله صلى الله عليه وسلم رحلة الدعوة الإيمانية مدة ثلاثة عشر عاما ، دعوة للإيمان بالله ، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة ، إلى أن صار كل المسلمين وحدة إيمانية قوية ، وارتفع السيف لا ليفرض العقيدة ، ولكن ليحمى حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف . فكيف نفسر وجود أبناء لديانات أخرى فى البلاد المسلمة ؟ لقد أتاح الإسلام فرصة اختيار العقيدة لكل إنسان .

إذن فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، وواجب كل مسلم أن يعرف أن الإسلام قد انتشر بالأسوة الحسنة ، وأنه كمؤمن بالله وبدين الله ، قد اصطفاه الله ليطبق السلوك الإيمانى ، فقد مكن الله للإسلام فى الأرض بالسلوك والقدوة .

إن كل مسلم عليه واجب ألا يترك فى سلوكه ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام ، ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام ، ولذلك فالمفكرون فى الأديان الأخرى حينما يذهبون إلى الإسلام ، ويقتنعون به ، إنما يقتنعون بالإسلام لأنه منهج حق . إنهم يمحصونه بالعقل ، ويهتدون إليه بالفطرة الإيمانية . أما الذين يريدون الطعن فى الإسلام ، فهم ينظرون إلى سلوك بعض من المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام .

إن المفكرين المنصفين يفرقون دائما بين العقيدة ، ومتبع العقيدة ، ولذلك فأغلب المفكرين الذين يتبعون هذا الاتجاه ، يلجأون إلى الإسلام ويؤمنون به . ولكن الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ، فإن صادفوا تابعا للإسلام ملتزما دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام ، ولذلك كانت الجمهرة الكثيرة الوفيرة فى البلاد الإسلامية المعاصرة فى بلاد لم يدخلها فتح إسلامى ، وإنما دخلتها الأسوة الإسلامية فى أفراد تابعين ملتزمين ، فراق الناس ما عليه هؤلاء المسلمون من حياة ورعة ، ومن تصرفات مستقيمة جميلة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه ، نظيف ، كل ذلك لفت جمهرة الناس إلى الإسلام ، وجعلهم يتساءلون : ما الذى جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قالوا : لأننا مسلمون . وتساءل الناس فى تلك المجتمعات : وما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن ، فالذى لفت إلى الإسلام هو السلوك المنهجى الملتزم . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض منهج الدعوة الناجحة يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

والدعوة إلى الله تكون باللسان والعمل الصالح، ليدل المؤمن على أن ما يدعو إليه غيره قد وجده مفيدا فالتزمه هو ، فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان . ولا يكتفى المؤمن بذلك ، إنما يعلن ويقول : « إننى من المسلمين » يقول ذلك لمن ؟ يقوله لمن يرونه على السلوك السمح الرضى الطيب . إنها لفتة من ذاته إلى دينه .

إن هذا يفسر لنا كيف انتشر الإسلام بوساطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام ، وبوقار الإسلام ، وبورع الإسلام ، فصار سلوكهم الملتزم لافتا ، وعندما يسألهم القوم عن السر فى سلوكهم الملتزم ، يقول الإنسان منهم : أنا لم أجىء بذلك من عندى ولكن من اتباعى لدين الله الإسلام .

ومثال ذلك فى السلوك الأسوة : المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد كان صحابته رضوان الله عليهم يخافون عليه من خصومه ، فكانوا

يتناوبون حراسته ، ومعنى تناوب الحراس أنهم أرادوا أن يكونوا المصد للأخطار يتداولون ذلك فيما بينهم . وأراد الحق سبحانه أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خفية ، ونام على بن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد أراد على ـ كرم الله وجهه ـ أن يكون هو المصد ، فإذا جاء خطر فإنه هو الذى يصده .

لاشك أنه كان يفعل ذلك لأنه واثق أن بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم خير للإسلام حتى ولو افتداه بروحه . هذا هو التسامى العالى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان الواحد منهم يحب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسوة بالرسول واتباع دين الله إنما يعود ذلك عليه بالخير العميم . وعندما يموت واحد منهم فى سبيل المحافظة على من أرسله الله رسولا ليبلغ دعوته فقد نال الشهادة فى سبيل الله .

هذا هو أبو بكر الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله فى الغار . ألم يجد الصديق شقوقا فيمزع من ثيابه ليسد الشقوق ؟ ألم يضع قدمه فى شق لأنه يخشى أن تجىء حشرة من الحشرات قد تؤذى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ؟ لقد أراد أن يحافظ على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو افتداه ، وهذه شهادة بأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بأن بقاء الرسول خير لهم وللإيمان ولنفوسهم من بقائهم هم أنفسهم .

وهكذا أراد الله نصرة رسوله على الكفار ، عندما مكروا وبيتوا أن يقتلوه قبل الهجرة ، وهكذا أراد الله نصر رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة عندما واجه أعداء الإسلام فى القتال ، لقد مكروا ، ولكن الله خير الماكرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول بهذا النصر من الله : لن تستطيعوا أن تقاوموا محمدا لا بالمواجهة ولا بالتبييت . وها هوذا تابع من أتباعه صلى الله عليه وسلم هو سيدنا عمر رضى الله عنه يهاجر علنا ، ويقول : من أراد أن تثكله أمه ، أو ترمل زوجته ، أو ييتم ولدُه ، فليلقنى وراء هذا الوادى . بينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية .